

## الجزء الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ  
لَكُمْ قَدْ تَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُنمِّ  
تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)  
سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ  
وَأَنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخْلِفُونَ  
لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ  
الْفَاسِقِينَ (٩٦)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### شرح المفردات

الغيب : ما غاب عنك علمه ، والشهادة : ما تشهده وتعرفه ، الانقلاب : الرجوع ،

رجس : أى قدر يجب الإعراض عنه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزَّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المذنبين ، ومن لا سبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم - ذكر في هذه الآيات ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم .

## الإيضاح

(يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم) أى سيعتذرون إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخولاف ، وهم أغنياء أصحاب لا عذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر .

(قل لا تعتذروا إن تؤمن لكم) أى قل لهم أيها الرسول لا تعتذروا إن أنتم تصدقتم في معاذيركم أبدا وإن نظمتن إليكم . ثم بين السبب في عدم تصديقهم فقال :

(قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد نبأنا الله بوجوه إلى رسوله بعض أخباركم التى تسرونها في ضمائمكم وهى مخالفة لظواهركم التى تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق الذى لا شك فيه ، ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ولا يصدق الكاذب .

وإنما قال نبأنا ولم يقل نبأنى إيماء إلى أنه أمره أن ينبئ بذلك أصحابه ولم يكن هذا النبأ خاصا به ، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضى أن يكونوا كلهم عاقلين بما فضحهم الله به ، وفى هذا من التشهير بهم والحزى لهم ما لا يخفى فيه .

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد ، وهو الذى سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم ، وأما أقوالكم فلا يعتد بها منها وكدموها بالآيمان ، فإن أتمتتم وأنتم إلى ربكم وشهدتكم عملكم بصلاح طوبيتكم ، فإن الله يتقبل منكم توبتكم ، ويغفر لكم حوبتكم ، ويعاملكم

الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك ، وإن أتم آيتم إلا الإصرار على النفاق وإلا الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التي تحلفونها فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار الجاهرين .

وفي هذا إيماء إلى الرغبة في توبتهم حين سنوح الفرصة .  
 (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أي ثم تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم ما كنتم تعملون وما تظهرون ، فينبئكم بما كنتم تعملون ويحازيكم عليه بما تستحقون وهو ما أوعدكم به في كتابه الكريم في هذه السورة وفي غيرها « **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** » .

وفي الآية إيماء إلى أنه ينبغي تحامى كل ما يعتذر منه من ذنب أو تقصير، وقد ورد في الحديث « **إياك وما يعتذر منه** » .  
 ثم أكد ماسبق من نفاقهم بقوله :

( **سَيَحْلِقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَرَضُوا عَنْهُمْ** ) أي سيؤكدون لكم اعتبارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سفرهم ورجعتم إليهم لعارضوا عن العتب عليهم والتوبيخ على تعودهم مع الخالفين من العجزة والنساء والأطفال وعلى البخل بالنفقة والمال .  
 ( **فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ** ) أي فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير ، لا إعراض الصبح وقبول العذر . روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين قدم المدينة « **لا مجالسوم ولا تكلموهم** » .

ثم علل هذا بقوله :  
 ( **إِنَّهُمْ رَجَسٌ** ) أي إن في هوسهم قدرا معنويا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه ، وميل النفوس إليه كما يحقر صاحب التوب النظيف من الأقدار الحسية التي ربما تعصيه إذا لم يحتط لها .

(ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) أى وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء لهم بما كسبوا فى الدنيا من أعمال النفاق وغيرها مما دنس نفوسهم ، وزادهم رجسا على رجسهم . ثم زاد فى تأكيد نفاقهم فقال :

(يخلفون لكم نترضوا عنهم) أى يخلفون لكم لتستدعوا معاملتهم بظاهر إسلامهم ، وهذا أهم الأغراض لديهم فلا حظ لهم من إظهار الإسلام سواه ، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله . (فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن ترضوا عنهم كما أرادوا ، وساعدتموهم على ما طلبوا فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا ، فإن الله ساءط عليهم بسبب فسوقهم وخروجهم عن أمره ونهيه .

وفى هذا إيماء إلى نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاعتذار بمعاذيرهم الكاذبة وأن من رضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقا مثلهم محروما من رضوان الله ، وأن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه ويدخل فى حظيرة مرضاته ولا يمد حينئذ فاسقا .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى الجذيين قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنون لما رجعوا إلى المدينة بالألا يجالسوهم ولا يكلموهم . وقال قتادة : إنها نزلت فى عهد الله ابن أبى فإنه حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته ألا يتخلف عنه أبدا وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل .

الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا تعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما يفتق مفرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

### شرح المفردات

الأعراب : اسم لبدو العرب ، واحده أعرابي والأشئ أعرابية ، والعرب اسم لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وخضره : واحده عربى ، والمغرب : الغرامة والمخسران ، من الغرام بمعنى الهلاك ، والدائرة : ما يحيط بالشئ والمراد بها ما لا يحصى منه من تصارييف الأيام ونوائبها التى تحيط شرورها بالناس ، والدائرة أيضا : الثائبة والمصيبة ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ، والقربات : واحدها قربة ، وهى فى المنزلة والمكانة كالقرب فى المكان والقربانة فى الرحم ، والصلوات : واحدها صلاة ، ويراد بها الدعاء .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال العرب مؤمنهم ومناقبيهم ، بين فى هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنهم ومناقبيهم كذلك .

### الإيضاح

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله )  
أى إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين :

(١) إن كفارهم ومناقبيهم أشد كفرا ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضرة ، ولا سيما من يقم منهم فى المدينة ، فهم أغلظ طباعا وأقسى قلوبا لأنهم يقضون سبل أعذارهم فى رعى الأنعام وحمايتها من ضواري الوحوش - إيدائهم محرومون من العلوم الكسبية والآداب الاجتماعية .

(٢) إنهم أشد وأجرى من أهل الحضرة ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على

رسوله من الهدى والبيئات فى كتابه وما آتاه من الحكمة التى بين بها تلك الحدود تارة بالقول وأخرى بالفعل .

وكان صحابته فى المدينة وما حولها يتلقون عنه الكتاب حين نزوله ويشهدون سنته فى العسل به ، ويرسل عماله إلى البلاد التى افتتحت بينمون الناس القرآن ويحكمون به وبسنة رسوله الميمنة له . وكل هذا لم يكن مستطاعا لأهل البوادر ، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية .

روى أبو داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « من بدأ جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلاطانه قريبا ، إلا ازداد من الله بعدا » ذلك أن السلاطين قلما يرضون عن إصرارهم القبول ويؤثرهم بالنصح ولا يزداد قريبا منهم إلا الزراءون الذين يعينونهم على الظلم ويتنون عليهم بالباطل . ( والله عليم حكيم ) أى واسع العلم يشئون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق ، تآم الحكمة فيما شرعه لهم ، وفى جزائهم من نعيم مقيم ، أو عذاب ألم .

( ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ) أى ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم فى الجهاد رياء وتفتية ، ويعدون ذلك من المغارم التى يجب على المرء أداؤها طوعا أو كرها لدفع المكروه عن أنفسهم أو عن قومهم ولا منفعة لهم فيها لافى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، قال الضحاك : هم بنو أسد وعطفان .

( ويتربص بكم الدوائر ) أى ينتظرون أن تحل بكم نوائب الزمان وأحداثه التى تدور بالناس وتحيط بهم ، فتبدل قوتكم ضعفا وانتصاركم هزيمة ، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم ، إذ يستنون عن إظهار الإسلام نفاقا ، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين ، فلما أعيتهم الخيل صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أن الإسلام يموت بموته .

( عليهم دائرة السوء ) هذا دعاء عليهم بنحو ما يترقبون به المؤمنين ، أى عليهم

وخدم الدائرة السوءة تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتبرصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة إلا ما يسرهم من نصر الله وتوفيقه لهم ، وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة .

(والله سميع عليم ) أى والله سميع لما يقولونه مما يعبر عن شعورهم واعتقادهم في نفاقهم إذا تجددوا بذلك فيما بينهم ، عليم بما يضمرونه من سرائهم التي يخفونها ، وهو سبحانه سيحاسبهم على ما يتسمع ويعلم من قول أو فعل وسيجزى بهم به .

وبعد أن بين حال المنافقين من الأعراب - ذكر حال المؤمنين الصادقين

منهم فقال :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أى ومن الأعراب من يؤمن بالله ويثبت له القدرة وكمال التصرف في الكون ، واليوم الآخر الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، قال مجاهد: هم بنو مقرر من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم « وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » .

(ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) أى يتخذ ما ينفقه وسيلة لأمرين :

(١) القربات والزنى عند الله تعالى جده .

(٢) صلوات الرسول أى أذعيته ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو

للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يحج في نصوص الدين انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحقة يتبع فيها .

وسميت الصلوات الشرعية بهذا الاسم من قيل أن الدعاء (وهو المعنى اللغوى لها)

هو روحها ونحها وسرها الذى به تتحقق العبودية على أتم وجوها .

وقد بين الله جزاءهم على ما انطوت عليه نفوسهم من صدق الإيمان وإخلاص

النية في الإنفاق في سبيل الله فأخبر بقبول نفعهم وإثابتهم عليها فقال :

(ألا إنها قريبة لهم) أى ألا إن تلك النفقة التي اتخذت قد تقبلها الله وأثاب عليها

بما وعد به في قوله « وَالَّذِينَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُمْ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(سيدخلهم الله فى رحمته) أى سيرحمهم الله برحمته الخاصة بمن رضى عنهم ،  
وهى هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جنات النعيم ، والمراد بإدخالهم  
فى الرحمة أن تكون محبطة بهم شاملة لهم وهم مغمورون فيها ، وهذا أبلغ فى إثباتها  
لهم من مثل قوله : « يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ » .  
(إن الله غفور رحيم) أى إنه واسع المغفرة والرحمة لمن يخلصون فى أعمالهم ، فهو  
يفر لهم ما فرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى خير العمل  
وحسن المصير .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ  
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ  
الْأَعْرَابِ مُتَاقِفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ  
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ  
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ  
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

### شرح المفردات

رضى الله عنهم: أى قبل طاعتهم ، ورضوا عنه: أى بما أسخ عليهم من النعم  
الدينية والدينية ، ومردوا: أى مروا وخطقوا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عر اسمه فضائل الأعراب الذين يتخذون ما يفتقون قربات - ففى  
على ذلك بذكر منازل أعلى من منازلهم ، وهى منازل السابقين من المهاجرين والأنصار

ثم ذكر بدم حال طائفة من المنافقين هى شر الجميع مرت على النفاق وحذقت فنونه  
وحال طائفة أخرى بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه ، وهؤلاء يرجى لهم  
التوبة والغفران من ربهم .

## الإيضاح

( والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ) ذكر  
الله فى هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هى خيرها :

(١) السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ،  
وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين ويقاتلونهم فى دار الهجرة وما حولها ولا يمكنون  
أحدا من الهجرة متى كان ذلك فى طاقتهم ، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار  
أو الجوار ، فالذين هاجروا فى ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين ، وأفضل هؤلاء  
الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .  
(٢) السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم  
عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة ، وكانوا سبعة ، وفى المرة  
الثانية ، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين .

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة  
والنصرة حلل كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، فإذا اتبعوهم فى ظاهر الإسلام كانوا  
مناضين مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع ، وإذا اتبعوهم محسنين فى بعض أعمالهم  
ومسيئين فى بعض كانوا مذنبين .

( رضى الله عنهم ورضوا عنه ) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم  
وإسلامهم ، قبل طاعتهم وتجاوز عن ذلالتهم ، وبهم أعز الإسلام وتكفل بأعدائه  
من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدينية  
وأنقذهم من الشرك وهدام من الضلال وأعزهم بعد الفلأ وأغنام بعد الفقر .

( وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة فى هذه السورة وغيرها ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالد بين روحانى وبدنى فوز أيا فوز .

والخلاصة — إن هذه الطبقات الثلاث قد استبق أفرادها الصراط ، وشهد لهم ربهم بالمغفرة والتجاوز عن كل ذنب ، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شىء ، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنوب .  
وبعد أن بين كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث ورضاه عنهم — بين حال منافق أهل المدينة ومن حولها فقال :

( ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ) أى إن بعض الأعراب الذين حولكم منافقون .  
قال البغوى والواحدى : هم من قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكانت منازلهم حول المدينة ، وذلك لا يمنع أن يكون فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ومدحهم ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قریش والأبصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالى الله تعالى ورسوله لا موالى لهم غيره » ، وعنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما إني لم ألقها ، لكن قالها الله تعالى »

وكذلك من أهل المدينة نفسها ناس منافقون من الأوس والخزرج سوى من أعلم الله رسوله بهم فى هذه السورة بما صدق منهم من أقوال وأفعال تنافى الإيمان . هؤلاء وهؤلاء مروا على النفاق وحقوه حتى بلغوا الغاية فى إتقانه ، فلا يشعر أحد به إذ هم يتقون جميع الأمارات والشبه التى تدل عليه .

( لا تعلمهم نحن تعلمهم ) أى لا يعرفهم أيها الرسول الكريم بفتنتك ودقيق فراستك لحذقهم فى التقية وتباعدهم عن مثار الشبهات ، بل نحن تعلمهم بأعيانهم ، وهؤلاء أخى نفاقا ممن قال الله فيهم : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن

يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمَائِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ « .

وهؤلاء لم يعلمه الله أعيانهم ولا فضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم في هذه السورة لأنهم يتحامون ما يكون شبهة في إيمانهم ، وضررهم مقصور عليهم لا يبدونهم إلى سواهم .

والحكمة في إخبارنا بحالهم أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم ، ويحذروا أن يفضحهم الله كما فضح سواهم ، وليتوب منهم من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله :

( سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ) أى سنعذبهم في الحياة الدنيا مرتين : أولاهما ما يصيبهم به من المصائب وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم . وثانيتهما آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كفرون ، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم في ذلك الحين ، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب جهنم وبئس المصير .

والتخلص — إنهم يعذبون في الدنيا بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمائر وعذاب الخوف من الفضيحة على رموس الأَشْهَادِ فِي الظاهر ، ثم عذاب النار وبئس القرار . وجملة القول — إن المنافقين فريقان : فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى لا يشعر أحد بشيء يستنكره منهم .

وهذان الفريقان يوجدان في كل عصر ، فما من قطر من الأقطار إلا منى أهله بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة العاصب واسترضائه ، وأنه لولاهم لتأدى في ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد ، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفية لا تشعر بها الأمة لأنهم مروا على النفاق .

وأشد المنافقين مروذا على النفاق أعوان الملوك المستبدين الذين يلبسون الباطل لباس الحق ويروجونه في أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك .

( وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ) أى وهناك فريق

آخر من حولكم من الأعداء ومن أهل المدينة ليسوا منافقين ولا من السابقين الأولين ، بل من اللذنين الذين خلطوا الصالح من العمل بالسيء منه ، والسيء بالصالح ، فلم يكونوا من الصالحين الخالص ولا من الفاسقين ، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقتروا بعض السيئات كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح ولم يستأذوا كاستئذان المرتابين ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين ، ثم كانوا حين قعودهم ناصحين لله ورسوله شاعرين بذنوبهم خائفين من ربهم .

وقد بين سبحانه حالهم بقوله :

( عسى الله أن يتوب عليهم ) أى إنهم محل الرجاء لقبول الله توبتهم بتوفيقهم للتوبة الصحيحة التى هى سبب المغفرة والرحمة . وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وتوبيخ الضمير حين تصور سخط الله والخوف من عقابه . ثم الإقلاع عنه بياض هذا الألم ، والعزم على عدم العود إلى إقترافه ، والعزم على العمل بضده ليحوا أثره من نفسه .

ثم علل هذا بقوله :

( إن الله غفور رحيم ) أى إنه تعالى يقبل توبتهم لأنه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

وفى معنى الآية قوله : « وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى »  
وقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »

قال جماعة من العلماء : إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يبتعدون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقلمون عن ذنوبهم .  
روى البخارى عن سمرة بن جندب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتأتى الليلة ( أى فى المنام ) ملكان فابتعثانى فاتهما بى إلى مدينة مبنية ببلدين ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطرنج من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطرنج كأقبح ما أنت راء ، قالوا لهم اذهبوا فقموا فى ذلك النهر ، فقموا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء

عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالوا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشرط منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لقد تجاوز الله عنهم .

ولاشك أن هذا تمثيل في الرؤيا التجميل العمل الصالح للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصلاح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلا للكرامة بعد أن تبعت كلها في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة ، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر جارٍ يفيض على عتبة الإنسان كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليها مسخا أو قدرا ، وفي الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْقَيْبِ وَالتَّشَاهُدِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

### شرح المفردات

الصدقة : ما ينفقه المؤمن قرابة لله ، والتزكية ، من قولهم رجل زكى : أى زائد الخير والفضل قاله في الأساس ، والصلاة : الدعاء ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء .

### المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات في بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها وقبول التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بما له ونفسه .

روى ابن جرير أن أبا ليابة وأصحابه (من تخلفوا وتابوا وسيأتى ذكرهم) جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أطلقوا فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال « ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها) فلما نزلت أخذ الثالث من أموالهم فتصدق به عنهم .

وهذا النص وإن كان سببه خاصاً ، عام في الأخذ ، يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين ؛ وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون المورسون ، ومن ثم قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعى الزكاة من أحياء العرب حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « والله لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه » .

## الإيضاح

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها) أى خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأتعام وأموال تجارة ، صدقة بمقدار معين في الزكاة المفروضة أو بمقدار غير معين في زكاة التطوع تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين ، وتزكّي أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية .

وقد نسبت التزكية إلى الله في قوله : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » لأنه الخالق الموفق للعبد لفعل ما تزكوه نفسه وتصلح .

ونسبت إلى رسول الله في هذه الآية في قوله : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَقُولُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ »

لأنه هو المرئي للمؤمنين على ما تزكوه نفوسهم ويعلم قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية وبيانه لكتاب الله ، فهو القدوة الحسنة لهم .

ونسبت إلى الفاعل لها في نحو قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » لأنه قد فعل ما كان سببا في طهارة نفسه وزكاتها من صدقات ونحوها من أعمال البر .

وأما النهي عن تزكية النفس في قوله : « فَلَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ » فذاك في تزكية النفس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها .

( وضلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ) أى وادع أيها الرسول المتصدقين واستغفر لهم ، فإن دعائك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها في مواضعها .

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم ، ومن ملائكته استغفارهم كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ومن المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم دعاؤهم له بما أمرهم به في الصلاة بعد التشهد الأخير كالدعاء المأثور ( اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد » .

( والله سميع عليم ) أى والله سميع لاعترافيهم بذنوبهم ، سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بندمهم وتوبتهم منها وإخلاصهم في صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، وعليم بما فيه الخير والمصلحة لهم وهو الذى يثيبهم عليها .

وقد زوى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل على فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » .

وفى هذا إيماء إلى أن المراد بالصدقة ما يعم الفريضة وغيرها ، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء ، ومن ثم قيل إن هذا الأمر للوجوب وهو خاص به صلى الله عليه وسلم .

### فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل ، والدناءة والأثرة ، والطمع والجشع ، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب ووربا ، وغير ذلك . فإن من يتعود بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزائنه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه - يكن أرفع نفسا من أن يأخذ مال غيره بغير حق ، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان والفتن والحروب ، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع ، فهى مثار التنازع والتخاصم ، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام .

وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المفرطة فى حب المال ، والنصرانية الروحانية الزاهدة ، فمن أهم مقاصده الإصلاحية فى الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل فى أمر المال ليتعدوا عن شر ظفیان الأغنياء على الفقراء ، ونصوص الدين فى هذا الباب هى الغاية التى لا يطمح مصلح فى التطلع إلى ما بعدها ، وهى هادمة لمزاعم من يفتت على الإسلام من أرباب الجهل والهوى .

وقد فرضت الزكاة المطلقة فى أول الإسلام وكانت اشتراكية ، والباعت عليها القلوب والضائر لا إكراه الحكام ، ثم جعلت معينة محدودة عند ما صار للإسلام دولة . وسر الوضع الأول أن جماعة المسلمين فى مكة قبل الهجرة كانوا محصورين ،

هذا  
بند  
فى  
صدقة  
حزبه  
لنهب  
المال  
مثل  
١٢  
محمد

ومنهم الموسر والمعسر وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع ، فوجب أن يقوم أغنياؤهم بكفالة فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم .

ولاشك أن الأسس الإصلاحية للعال التي وضعها الإسلام لا يتسنى لأقدر الأمم المالية في العصر الحاضر أن تضع خيرا منها ، انظر إليه تراه حرم الربا والقمار لما أنهما يوجدان التنازع والتخاصم بين الناس وإن كان فيها بعض المكاسب ، وأوجب الحجر على السفهاء في أموالهم صيانة لها عن الضياع فيما يضرهم ويضر أمتهم ، وفرض النفقة الزوجية والنفقة على ذوى القرابة من ذوى الحاجة ، وذم الإسراف والتبذير والبخل والجشع والتقتير ومدح التقصد والاعتدال في النفقة على النفس والعيال ، وأباح الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف حفظا لثروة من الضياع وبعدا عن الأمراض والأدواء البدنية ، وجعل زكاة النقدين الواجبة هي ربع العشر أى  $\frac{1}{4}\%$  وهو أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستئلال .

انظر إلى الثروة في مصر نقدا وتجارة وتأمل مقدار ربع العشر الواجب فيها في كل عام لفقرائها ومراقبها العامة ، ثم قدر في نفسك إذا هي قامت بالواجب الديني عليها في الزكاة ، هل يكون فيها فقر مدقع أو شقاء بين أفراد الأمة ، هل تتصور أن تنتشر فيها الأمراض المعدية أو ينجم على أفرادها الجهل ، أو ترتكب فيها جنائيات السرقات وقطاع الطرقات وذوى الخيانة والعدو ، أظن أن الجواب على ذلك : لا .

وقد جاء في الكتاب والسنة الترغيب في بذل المال في سبيل البر وجعله علامة من علامات الإيمان الموجبة لثواب الرحمن والدخول في غرفات الجنان ، ولم يجيء مثل ذلك في أى نوع من أنواع البر وضروب الإحسان .

( ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ) أى ألم يعلم أولئك الثابتون من ذنوبهم أن الله هو الذى يقبل توبة الثابتين من عباده ، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه لا رسول ولا من دونه .

وفي الآية حض على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

(و يأخذ الصدقات ) أى يتقبلها ويثيب عليها ويضاعف ثوابها كما وعد بذلك فى قوله : « **إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** » .

(وأن الله هو التواب الرحيم ) أى إنه تعالى هو الذى يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين الذين يثيبون إلى ربهم ، وإنه هو الرحيم بالثائبين الذى يثيبهم على ما قدموا من عمل ، ويمتعهم الخوف أن يصروا على ذنب كما قال تعالى فى وصف المتقين « **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرِحُوا** » .

« ما أصرَّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه الترمذى ، وأوروى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما صدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يرى أحدكم فلوه أو فضيله » والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ) أى وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ، لأنفسكم وأمتكم ، فالعمل هو مناط السعادة ، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجد والتشمير ، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه فى أعمالكم وتذكروا أنه عليم بمقاصدكم ونياتكم ، فحذروا ممن يؤمن به أن يتقيه فى السر والعلن ويقف عند حدود شرعه ، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذى يفرق بين الإخلاص والنفاق ، وهم شهداء على الناس .

روى أحمد والبيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كَوَّةٌ لَأَخْرَجَ اللَّهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَأَنَّا مَا كَانَ** » .

وفى الآية إيماء إلا أن مرضاة جماعة المؤمنين القامئين بحقوق الإيمان تلى مرضاة الله ورسوله ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « **مُرُوا بِمَجَازَةِ فَأَنْتُوا عَلَيْهَا خَيْرًا** » .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وجبت ثم امزوا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ! قال : هذا أثنتم عليه خيرا فوجبت به الجنة ، وهذا أثنتم عليه شرا فوجبت له النار ، أتم شهداء الله في الأرض » . وقال ابن عباس ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . . . . . ( وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ) أى وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سراثركم وعلائقكم ، ومن لا يخفى عليه شيء من بواطن أموركم وظواهرها فيعرفكم أعمالكم ثم يجازيكم عليها بحسن الثواب أو سوء العذاب .

وَأَخْرُونَ مُرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

شرح المفردات

مرجون ومرجونون وبهما قرئ : أى مؤخرون ، يقال أرجأت الأمر وأرجيته : أى أخرته .

المعنى الجملى

كان المتخلفون عن الجهاد في غزوة تبوك أقساما ثلاثة : (١) المنافقون الذين مردوا على النفاق ، وهم أكثر المتخلفين .

(٢) المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وذكروا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عليهم .

(٣) المؤمنون الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم لا عذر لهم ، وأرجئوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القاطع في أمرهم لأسباب مستدركة .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار ، والتفئؤ بالظلال لاشكًا ونفاقًا ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء وأرجشت توبة هؤلاء حتى نزلت آية التوبة «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ» الخ .

### الإيضاح

( وآخرون مرجون لأمر الله ) أى ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله فى أمرهم ، وهم أولئك نفر الذين سبق ذكرهم وكانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمم باللحاق به ولم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا لاعدن لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم كما فعل أبو لبابة وأصحابه من الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فنزل فيهم قوله تعالى .

( وآخرون مرجون ) الآية فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نساتهم وإرسالهن إلى أهلهن إلى أن نزل قوله ( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ) الآية .

( إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ) أى إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة وقد أمرهم الأمر عليهم وعلى الناس فلا يدرون ماذا ينزل بهم ؟ هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أو يحكم بعدابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين .

وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن فى قلوبهم لتصح توبتهم .

وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالتهم ومخالطتهم ، تربية للمفريقين

على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله  
والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين .

( والله عليم حكيم ) أى والله عليم بما يصلح حال عباده ويربهم ويركهم  
أفراداً وجماعات ، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح إذا عملوا بها .  
ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم فى كتابه ، كما أن تكرار تلاوتها  
فى مختلف الأوقات مما يقع فى قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويفيدهم عظة وتهدينا .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ  
وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى  
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى  
التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا ،  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ  
وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَتَهَارَبَ بِهِ  
فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي  
بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَليمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

### شرح المفردات

الضرار والمضارة : محاولة إيقاع الضرر ، والإرصاد : الانتظار والترقب مع العداوة  
يقال رصدته : أى قصدت له على طريقه أترقبه ، وأرصدت هذا الجيش للقتال ، وهذا  
الفرس للطراد ، ولا تقيم : أى لا اتصل ، والثانيس : وضع الأساس للبناء  
ليقوم عليه ويرفع ، والتقوى : اسم لما يرضى الله وينق من سخطه ، وشفا أى جرف

والجرف (بضمين) : جانب الوادى ونحوه ، والمار والمأمر : كالشاك والشائك : الضعيف المتداعى للسقوط ، وانهار : سقط ، والريبة : من الريب ، وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والخيرة ، وتقطع : أى تفرق أجزاء .

### المعنى الجملى

هذه الآيات زلت فى بيان مكيدة من مكائد المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وذكرت هنا لما فيها من العبرة والعظة والذكرى بإيهاهم عطفها على من أرحأ الله الحكم فى أمرهم ليتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المعروفين بمسجد الضرار ويتخذيه ، ويتخافوا أن يؤاخذوا بما شابهتهم لهم ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم .

روى فى سبب نزول الآيات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، كان قد تنصر وقرأ علم أهل الكتاب وكان له منزلة كبيرة فيهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجراً واجتمع عليه المسلمون وعلت كلمة الإسلام وأظهره الله على أهل الشرك خرج فاراً إلى مكة وأب المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد وخاطب قومه الأنصار ليستميلهم إلى نصره فسبوه وردوه أفبج رد ، ولما فرغ الناس من الوقعة فر إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده وخباه وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمداً ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا به معقلاً يأوى إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموا بناءه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسأوه أن يصلى فى مسجدهم ليكون ذلك ذريعة إلى تقريره لإبائته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العنة فى الليلة الثانية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على جناح مقر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

وبما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرائ وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد وهدمه قبل مقدمه المدينة وأمر أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة إهانة لأهل المدينة .

## الإيضاح

(والذين اتخذوا مسجدا ضرازا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

زوى أن الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلا من منافقي الأوس والخزرج ، وقد بين الله الأغراض التي لأجلها بُني ، وهي :

(١) مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجرا قبل وصوله إلى المدينة .

(٢) تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاؤم فيما بينهم في الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطمع فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

(٣) التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك ، فإنهم كانوا يصلون جميعا في مسجد قباء ، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة وهو أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية ، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لأغراض الدين وكرامته ، ومن الواجب أن يصل السامعون الجمعة في مسجد واحد لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن تفرقوا عدا كانوا آتئين .

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قرينة بتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة

إلى ذلك ، ولم يكن سببا لتفريق جماعتهم ، فكثير من المساجد المتقاربة فى القاهرة وغيرها من الأمصار الأخرى لم تُبَنّ لوجه الله بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء ، وعدم نصيح العلماء لهم .

(٤) الانتظار والتقرب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محاربا فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم أولئك المناقون الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك .

(وليلحقن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) أى ويلحقن ما أردنا بينائنه إلا الخصلة التى تفوق غيرها فى الحسن ، وهى الرقى بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجز والضعف ومن يجسبهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وليصلى معهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى إيمانهم لأنهم ما بنوه إلا للسوءى وضرار مسجد قباء .

(لاتنقم فيه أبدا) أى لاتنقم فى هذا المسجد للصلاة أبدا .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) أى إن مسجدا قصد بينائه منذ وضع أساسه فى أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى - هو أحق من غيره أن تقوم فيه أيها الرسول مصليا بالمؤمنين .

والسياق يدل على أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، ولكن روى أحد ومسلم والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، والآية لاتمنع إرادة كل من المسجدين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى كلا من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه بينائه . (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسيحجه فيه بالعدو والآصال ، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يطلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام ، كما تطهر المتخلون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، وينبع

العارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها - الطهارة الحسية للثوب والبدن ، وطهارة  
الوضوء والاعتسال .

والخلاصة — إن التطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، والروايات وردت  
بكل منهما ، والأولى إرادتهما معا .

( والله يحب المطهرين ) أى الذين يبالبغون فى طهارة الروح والجسد لجهنم إياها ،  
لأنهم يرون فىهما الكمال الإنسانى ، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب ، وأشد  
منها بغضا لهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصى والتخلق بدميم  
الأخلاق كالرياء فى الأعمال إذ هو فعل المنافقين ، والشح بالأموال أو بالأنف  
فى سبيل الله ابتغاء لمرضاته .

وحب الله إياهم من صفات كماله ، إذ العالم بتفاوت الأشياء فى الحسن والتبج  
والكمال والنقص يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير وبغض أضعافها .

وحبه تعالى منزه عن مشابهته جبا كتمززه ذاته وسأمر صفاته عن مشابهة ذواتنا  
وصفاتها ، ويظهر أثر حبه لعباده فى أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم كما أشد  
إليه الحديث القدسى الذى رواه البخارى « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى  
أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » الحديث .

وفى معنى الآية ما جاء فى عظة نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهن باتباع  
أوامره ونواهيه بما يليق بما لهن من مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلم ذلك  
بقوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

( أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على  
شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ) هذا بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل  
مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ومقاصد أهل مسجد الضرار  
الذى زادوا به رجسا إلى رجسهم .

والأساس على شفا الجرف الهار مثل يضرب لما يكون فى منتهى الوهم والانحلال

والإشراف على الزوال، أى أمن أسس بنيانه الذى يتخذة موطناً لراحته وهناء ميمشته ويتقى به العوامل الجوية، وعدوان الكائنات الحية على أمن الأسس وأقواها على مصابرة العواصف والسيول وصد الهوام والوخوش - خير بنيانا، أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمسا كما فكانت عرضة للانهياب فى كل حين نهن ليل أو نهار؟

وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان، والنفاق والارتياب، أى أمن كان مؤمناً صادقاً يتقى الله فى جميع أحواله ويبتغى مرضاته فى جميع أعماله، قاصداً تركية نفسه وإصلاح سريره - خير أم من هو منافق مرتاب، يبتغى بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاتة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله مع ما يكون لعمله فى الدنيا من العار والفضيحة والحزى والبوار، وفى الآخرة من الانهياب فى النار.

وخلاصة المثل - بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به وثمرته فى أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عليهم، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه وقرب زواله وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع أماله، وبيان أن شراً أعمال أهل المنافقين، ما اتخذوه من مسجد الضرار لمقايده الأربع المتقدمة.

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح فى الوجود، وقد صدق الله وعده وثبت المؤمنين بالقول الثابت، وهداهم إلى العمل الصالح ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل، وأهلك الله المنافقين، وقد جرت سنة الله فى كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به، ولم يقلموا عنه.

(والله لا يهذى القوم الظالمين) أى مضت سنته تعالى ألا يكون الظالم مهتديا في أعماله إلى الحق والعدل ، ولا إلى الرحمة والفضل .

(لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) أى لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين ، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين ، ولكن حين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه تقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم : أيتروا على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنبأ أمواهم ، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء ، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين فى أمره ، ولأى سبب كان ذلك .

ولا يزال هذا شأنهم فى جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذا وصيرورتها جداذا ، فتكون غير قابلة للإدراك .

وفى هذا إيماء إلى تمكن الريبة فى قلوبهم وإضمار الشرك بحيث لا يزال منها ما داموا أحياء .

وإخلاصة — إنه لا يزال هدم بنيانهم الذى بنوا سببا للقلق واضطراب النفس وإن ذلك لا يزال ما دامت القلوب سالمة . أما إذا تفرقت قطعا وتقطعت أجزاء بقتلهم حينئذ يسألون عنه .

وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفریطهم (والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، حكيم فى أفعاله ، ومن حكمته أن يبين حال المنافقين وأظهر ما خفى من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة فى ذلك .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْأَنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ، فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِكُمُ الَّذِي  
بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ  
السَّائِحُونَ الرَّاکِمُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢).

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضأح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأصناف  
المقصرين من المؤمنين، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين فى إيمانهم البالغين  
فيه حد الكمال، وبذا تم معرفة جميع أحوال المؤمنين.

### الإيضاح

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) هذا ترغيب  
فى الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة، فقد مثل الله إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم  
وأموالهم فى سبيله بتخليكهم الجنة التى هى دار النعيم والرضوان الدائم السرمدى تفضلا  
منه تعالى وكما - بصورة من باع شيئاً هو له لآخر - وعاقده عقد البيع هورب العزة،  
والببيع هو بذل النفس والأموال، والثمن هو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر  
على قلب بشر، وجعل هذا العقد مسجلاً فى الكتب السماوية، وناهيك به من  
صك لا يقبل التحلل والفسخ، وفى هذا منتهى الرجح والفوز العظيم، وكل هذا لطف  
منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذى خلقها، ولأموالهم  
إذ هو الذى رزقها، ولهذا قال الحسن: اشترى أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها،  
إلى أنه تعالى غنى عن أنفسهم وأموالهم والبيع والثمن له وقد جعله بفضله وكرمه لهم.  
روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال: نزلت هذه الآية على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي رداءه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت فينا هذه الآية ، قال « نعم » فقال الأنصارى : بيع زبيح لا ثقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك فقال : « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : ربح البيع لا ثقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية » .

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت ، أن سعد ابن زرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمدا ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقال يا رسول الله اشترط على ، فقال : تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم ، قالوا نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ قال الجنة والنصر .

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم بالعباس ابن عبد المطلب وكان ذا رأى إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عينا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم : يا محمد سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعلينا إذا فعلنا ذلك ؟ ، فقال : أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، فكان الشعبي إذا حدث هذا الحديث قال : ماسمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً « من سل سيفاً في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة ، وفي رواية « اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » .

ثم بين صفة تسليم البيعة فقال :

(يقاتلون في سبيل الله فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ) أى إنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل التي توصل إلى مرضاة الله تعالى ببدل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الضادين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل ، ولا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل والثبوت عند الله ، فكل منهما كان في سبيله ولم يكن رغبة في سفك الدماء ، ولا حباً للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء .

(وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن) أى وعدم وعدا أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبتته في التوراة والإنجيل ، وضياعه منهما في النسخ التي بين يدي أهل الكتاب لا يضير في ذلك ؛ لأنه قد ضاع منهما كثير وحرف بعضهما لفظاً ومعنى ، ويكفي إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما .

(ومن أوفى بعهده من الله ؟) أى لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إيماءه من شأنه .

(فاستبشروا ببيعكم للذي بايعتم به) أى فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فرتم به من الجنة .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى الفوز الذي لا فوز أعظم منه ، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لا يعد فوزاً إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل .

وفي هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب مالا يخفى ، إذ جعلهم مالكيين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذي بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء وإحراز وعده .

وعن جعفر الصادق أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . يريد أن الذي يقتل أو يموت في سبيل الله بذل بدنه القاني ، لاروحه الباقي . ثم وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته — بصفات هي :

(١) (التائبون) أي هم الراجعون إلى الله بترحمهم كل ما يبعد عن مرضاته ، وتوبة الكفار هي رجوعهم عن الكفر الذي كانوا عليه كما قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » ، وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه ، وتوبة العاصي من معصيته تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه ، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره .

(٢) (العابدون) لله المخلصون في جميع عباداتهم ، فلا يتوجهون إلى سواه بدعاء ولا استغاثة ولا يتقربون إلى غيره بعمل قربان ولا طلب مشوية في الآخرة .

(٣) (الحامدون) لله في السراء والضراء ، روى عن عائشة رضی الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

(٤) (السامحون) في الأرض لغرض صحيح كعلم نافع للسامح في دينه أو دنياه أو نافع لقومه وأمته أو النظر في خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار وقد حث الله كثيرا على السير في الأرض والضرب فيها كما قال « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مِائَةً ثُمَّ كَفَّنا عَنْهُمْ » .

وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .  
والإسلام الذى يميز سفر النساء فى الغزوات وهن غير مكلفات بالقتال للمساعدة  
عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح فهو بالأولى يميز صحبتهم فى سائر  
الأسفار، وفى ذلك إحصان لكل من الزوجين ومنع لهما عن التطلع إلى الأجنبي .  
وفسر بعضهم السياحة بالصيام لما روى عن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام  
لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالباً .

(٦، ٥) (الراكون الساجدون) فى صلواتهم المفروضة ، وخصاً بالذكر لما  
فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه .

(٨، ٧) (الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الداعون إلى الإيمان  
وما يتبعه من أعمال البر والخير، والناهون عن الشرك وما بسبيله من المعاصى والسيئات.

(٩) (والحافظون لحدود الله) أى المحافظون لشرائعه وأحكامه التى بين فيها  
ما يجب على المؤمنين اتباعه وما يحظر عليهم فعله منها، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين  
وأولى الأمر منهم إقامته وتنفيذه بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخذوا بما يجب  
عليهم حفظه منها .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات  
ببخيرى الدنيا والآخرة .

وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى  
قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ  
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِياَهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ  
مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ

هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ  
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦).

### شرح المفردات

الأوَّاه: الكثير التأوّه والتحسر، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه،  
وقيل إنها كلمة حبشية الأصل، ومعناها المؤمن أو الموقن، وأصل التأوّه: قول أوّه أو آه  
أو نحوها مما يقوله الحزين أو أوّه بكسر الهاء وضمها وفتحها، وآه بالكسر منونا وغير  
منون، والحليم: الذي لا يستفزه الغضب ولا يعث به الطيش ولا يستخفه هوى النفس،  
ومن لوازم ذلك الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في الرغبة والرغبة.

### المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين في جميع الأحوال،  
وهنا بين أنه يجب البراءة من أمواتهم وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم، ثم ذكر  
السبب الذي لأجله استغفر إبراهيم لأبيه وهو وعده بالاستغفار بقوله: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ  
لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» « فلما أصرّ على كفره تبرأ منه، و بعدئذ بين  
رحمته بعباده وأنه لا يعاقبهم على شيء إلا بعد بيان شافي لما يعاقبون عليه.

أخرج أحمد وابن أبي شيبة والبخارى ومسلم وابن جرير وغيرهم عن سعيد  
ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه  
وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أى عم قل لا إله إلا الله،  
كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة  
عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك  
المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله

إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »  
فأنزل الله ( ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ) وأنزل الله  
في أبي طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ  
اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقد كان موت أبى طالب بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث  
سنوات ، ومن ثم استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت في أبى طالب ، وأجاب  
آخرون بأن الذى حصل قد يكون أحد أمرين :

(١) إنها نزلت عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها الأحكامها  
الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين .

(٢) إنها نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه  
وسلم له ، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية يستغفر لأبى طالب ، فإن التشديد  
على الكفار والبراءة منهم إنما جاء في هذه السورة .

وفي الآية إيماء إلى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه  
بذلك كقولهم المغفور له والمرحوم فلان كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة .  
وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم  
يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

### الإيضاح

( ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ) أى ما كان من شأن النبي  
ولأئمة ينفى أن يصدر منه من حيث هو نبي ، ولأئمة المؤمنين ولا بما يجوز أن  
يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين .  
( ولو كانوا أولى قربنى ) أى ولو كان لهم حق البر وصلة الرحم ، وكانت عاطفة  
القرابة تقتضى الحذب والإشفاق عليهم .

(من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم): أى من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أو بأنه نزل وحى يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وخلصه ذلك — إن التوبة والإيمان الصادق لا يبيحان الاستغفار للمشركين في كل حال حتى ولو كانوا أولى قرى إذا ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب الجحيم . ثم أجاب عن سؤال قد يحتاج بالخطاير مما تقدم ، فيقال كيف يتمتع النبي والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه فقال :

( وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ) أى وما استغفر إبراهيم لأبيه آزر بقوله ( وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ) أى وفقه للإيمان واهده إلى سبيله — إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك أن أدعو الله لك

وقد وفى إبراهيم بما وعد ولم يكن إلا وفياً كما شهد الله له بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

( فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ) أى لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، قال ابن عباس ، وقيل تبين له ذلك بوحي من الله تبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » الآية .

ثم بين السبب الذى حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وسوء خلقه معه كما يؤذن ذلك قوله له : « لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُنْكَ وَأَهْرُفِي مَلِيًّا » . فقال :

( إن إبراهيم لأواه حليم ) أى إن إبراهيم لكثير المبالغة فى خشية الله والخضوع له ، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه .

( وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ) أى وما كان من سنن الله فى خلقه ولا من رحمته وحكمته أن يصف قوما بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم للإسلام - بقول يصدر منهم عن غير قصد أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطئ .

( حتى يبين لهم ما يتقون ) من الأقوال والأفعال بيانا واضحا برحى صراحة أو دلالة .

( إن الله بكل شىء عليم ) أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جعلتها حاجة الناس إلى البيان فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهداهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعمهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد - بين أن النصر لا يكون إلا من جهة تعالى فقال :

( إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ) أى إنه تعالى مالك كل موجود ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيبته ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله ، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ  
 الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ  
 رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ  
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ  
 إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩).

### شرح المفردات

العسرة : الشدة والضيق ، وزاغ : مال ، والرحب : السعة ، ولجأ إلى الحصن  
 وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ، والرحمة : السعى  
 في إيصال المنفعة .

### المعنى الجملى

بعد أن استقصى سبحانه أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذى  
 سلف - عاد مرة أخرى إلى الكلام فى توبتهم جرياً على سنة القرآن الكريم  
 فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد لأنه أفعال فى النفس وأشد تأثيراً فى القلب  
 وأجدى فى تجديد الذكرى وأدنى ألا يسأم التالى لها فى الصلاة وغيرها . إلى أنه  
 مناسب لما قبله من النهى عن الاستغفار للمشركين ، إذ كل ما يتاب منه ، وكل  
 عثرة يطلب منها الصفح والعمو .

### الإيضاح

( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ) أى لقد تفضل سبحانه وعطف  
 على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات

صدرت منهم فى هذه الغزوة وغيرها لبلابهم الحسن فيها ، ولأنهم لم يصيروا على شىء منها .

وقد كانت هفواتهم على سنن الطباع البشرية واجتهاد الرأى فيما لم يبينه الله بياناً قطعياً بحيث يعد مخالفه عاصياً ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة « عَمَّا لَلَّهِ عَنْكَ - لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيراً منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار ، وهم خلص المؤمنى كانت من تفاقلم فى الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التناقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقى فيما كانوا يبعون من فتنه المؤمنى .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وإنما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل .

(الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفذت فيه مئوتهم من التمر وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شىء منه ، فكان يكفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمر الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزلجة المتغيرة الرائحة - وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا القرث الذى فى كرشه ويبلّوا به ألسنتهم - وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العسرة يمتقبون بعيراً واحداً - وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمري رضى الله عنهم : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فزلنا منزلاً فأصابنا

فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى إن كان الرجل لينحر بظهره ليمصر  
فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول  
الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء  
فأهطلت ثم سكنت فملثوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدهاجاوزت العسكر .

( من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ) أي إنه تاب على المؤمنين كافة من  
بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان وهم الذين تخلفوا غير علة النفاق ، وهم الذين  
وصنهم الله بأنهم عملوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم  
كما ذكر فيما سلف .

( ثم تاب عليهم ) هذا تكرير للتوكيد كما يقال عفا السلطان عن فلان  
ثم عفا عنه ، فيدل ذلك على أنه عفو متأكد يبلغ الغاية القصوى من القوة والكمال .  
ثم علل قبول توبتهم بقوله :

( إنه بهم رؤوف رحيم ) أي إن ربهم رؤوف رحيم بهم ، فلا يهلكهم بأن  
يزيغ الإيمان منهم بعد ما أبلوا في الله وأبلوا مع رسوله وصبروا في البأساء والضراء .

( وعلى الثلاثة الذين خلفوا ) أي ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن  
الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم اللرجون لأمر الله ، وتقدم  
أنهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، وحرارة بن الربيع .

( حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ) أي خلفوا عن التوبة حتى شعروا  
بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعا خوفا من العقاب وجزعا  
من إعراض النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم في المحالسة والمحادثة .  
وهذا مثل للحيرة في الأمر ، كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا  
تمام فيه ، قال قائلهم :

كأن فجاج الأرض وهي فسيحة على الخائف المطلوب كفة خايل  
ثم ترقى وأنتقل من ضيق الأرض عليهم إلى أضيقتهم في أنفسهم فقال :

لعمري  
هكذا  
ببئس الله  
فلا يم  
١١٢

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى وضائق أنفسهم على أنفسهم ، لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بانتلائها بالهم والغم حتى لا تمتنع فيها لشيء من البسط والسزور ، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به .  
(وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) أى واعتقدوا أنه لا ملجأ لهم من غضب الله ورسوله ، إلا إليه تعالى بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته ، وقد أعرض عنهم رسول البر الرحيم بأصحابه فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه واستغفاره - إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يشفع فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم .

(ثم تاب عليهم) أى ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم .  
(ليتوبوا) ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

(إن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى كثير القبول لتوبة التائبين ، الواسع الرحمة للمحسنين ، المتفضل عليهم بضروب النعم مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب .  
وكان من حديث هؤلاء الثلاثة ما حدثه كعب قال : «لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالفص بعد ما ذكرنى وقال : « ليت شعرى ما خلف كعبا » فقيل له ما خلقه إلا حسن بُرديه والنظر فى عطفه فقال : « معاذ الله ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب أو بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نتمزل نساءنا ولا نقرهين ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع (جبل بالمدينة) أبشريا كعب بن مالك نحررت ساجدا ، وكنت كما وصفنى ربي (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلى طلحة بن عبد الله يهرول حتى صاغخى وقال : لتهلك توبة الله ، فلن أنساها لطلحة ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر ، أبشريا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية .

وفي هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم وتفيض لها عبراتهم ، وقد كان الإمام أحمد لا يبيكه شيء من القرآن كما تنكيه هذه الآيات .

انظر إلى هذا وتأمل قسوة قلوب الجاهلين المغرورين الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ويتركون الفرائض ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ولا يتوبون إلى الله ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم الواعظ وجدهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، ومتكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار مكفريات الذنوب مما لا أصل له في الدين ، أو له أصل يراد به تكفير الصغائر بشرط اجتناب الكبائر ، كما قال تعالى :  
« **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرَاتٍ مَا تُنْفَعُونَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** » .

( يأياها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ) أى يأياها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا في الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إِنْ** الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعيد الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، اقرءوا إن شئتم : **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** » وأخرج البيهقي مرفوعا « **إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى النَّجْوَرِ ، وَإِنَّ النَّجْوَرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، إِنَّهُ يُقَالُ لِلصَّادِقِ : صِدْقٌ وَبِرٌّ ، وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ : كُذْبٌ وَفَجْرٌ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَدِّقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِّيقًا ، وَيَكُذِّبُ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا** » .

ولا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها أى في التحجب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا في مصالح الدار والمال وغيرها .

أخرج ابن أبى شيبه وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » .  
ولا شك أن فى المعارض ما يعنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث « إن فى المعارض لمنذوحة عن الكذب » .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنُ مَوْطِنًا يَعْغِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَبَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) .

### شرح المفردات

رغب فى الشيء : أحبه وآثره ، ورغب عنه ، كرهه : وقد جمع بينهما فى الآية .  
والظمأ : شدة العطش ، والنصب : الإعياء والتعب ، والمخمصة : الجوع الشديد ،  
والغيظ : الغضب ، ونيلًا : أى أسرا وقتلا وهزيمة ، والوادي : كل منفرج بين جبال  
وآكام يكون منفذا للسيل .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون - أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

## الإيضاح

( ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ) أى لا ينبغي لأهل المدينة حاضرة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من حولهم من الأعراب كمنزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم - أن يتخلفوا عن رسول الله في غزوه في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ، ولا في غيره من شئون الأمة ومصالح اللمة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا في الراحة والسلامة ولا يبذلوا فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه في البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تنهات فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها فضلاً عن أن يربثوا بأنفسهم عن متابعتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة - إن التخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه .  
وفي ذلك نهى شديد عن عملهم وتوبيخ لهم عليه وتهيبج لمتابعته صلى الله عليه وسلم بأئفة وحمة .

( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا محمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ) أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى وإن كان قليلاً كظمأ ثقله الماء ، أو نصب لبعده الشقة ، أو لثقله الظهر ، أو مجاعة لثقله الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذي بعده استهانة بقوته فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمية - إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه

بالتواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم أو عروض جوع أو عطش أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشى أو كلام أو نحو ذلك مشكورا مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب .

### انقضاء

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

(إن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الله لا يدع محسنا أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه - أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا فلم يضع لهم أجرا على عمل عملوه .

(ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغرا أو كبيرا ، قل أو أكثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو راجعين - إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاء لهم على عملهم ولا يترك شىء منه أو ينسى .

(ليجزىهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها وهم مقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك - إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ  
طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَحْذَرُونَ (١٢٢) .

### شرح المفردات

نفر: خرج للقتال ، ولولا: كلمة تفيد الحضي والحث على ما يدخل عليها إذا كان  
مستقبلا ، واللوم على تركه إذا كان ماضيا ، فإن كان مما يمكن تلافيه فرما أفاد الأمر  
به ، والفرقة: الجماعة الكبيرة ، والطائفة: الجماعة القليلة ، وتفقه: تكلف الفقه  
والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ، وأنذره: خوفه ، وحذره: تحرز منه .

### المعنى الجملي

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والتفقه في الدين من  
قبيل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان ، وهو الركن الركين في الدعوة إلى الإيمان وإقامة  
دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من  
أن تلعب بها أيدي المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما شدد الله على المتخلفين  
قالوا لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك وبقى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وحده فنزل (وما كان المؤمنون) الآية .

### الإيضاح

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يطلب منهم  
أن ينفروا جميعا في كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط

عن الباقرين ، لا فرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ) أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ليتسنى لهم : أى المؤمنين فى جملتهم التفقه فى الدين ، بأن يتكلف الباقرين فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات وما يكون منه صلى الله عليه وسلم من بينها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح الجمل بالعمل به ، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجمعوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا ، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه وبيان أسرارها للناس لأن يوجهوا أنظارهم إلى الرياضات والنبات العالية والترفع عن سواد الناس . وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومرآكبتهم ومنافسة بعضهم بعضاً .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سائر المراتب ما لا يقل فى الدرجة عن الجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجباً عينياً على كل شخص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

## المعنى الجملى

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة - أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد في هذا الباب ، وهو أن يبدؤوا بقتال من يليهم ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق ؛ وكذلك في أمر الدعوة فقد قال تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ثم أمر بالدعوة العامة وقاتل من يقف في طريقها من المشركين فقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » .

## الإيضاح

( يأيتها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ) أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذلك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله : « لَتَنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة: منها قلة النفقات ، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات ، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع في الدعوة والنفقات والصدقات وما يدار في المجالس من شراب ونحوه ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، وقال للأعرابي الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك » .

( وليجدوا فيكم غلظة ) الغلظة ( مثلثة ) : الشدة والخشونة ، أى وليجدوا

فيكم جرأة وصبرا على القتال وعنفا في القتل والأسر ونحو ذلك كما قال : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » .

والغلاظة في زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح .

وفي الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة ، لأن يقتصر على الغلاظة فإِنَّ ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم . وإنما أمروا بذلك في القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم في الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة في المعاملة ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين .

(واعلموا أن الله مع المتقين) أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه ، واجتهدتم عن التقصير في أسباب النصر والغلب من إعداد العدد المناسبة للزمان والمكان التي عناها الله بقوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) ومن الثبات والصبر ، والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ضروباً من محازى المنافقين كتحلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالإيمان الفاجرة - ذكر هنا ضروباً أخرى من تلك المثالب كتهكمهم بالقرآن وتسلمهم لوإذا حين سماعه ، وهذا آخر منازل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفي المؤمنين .

## الإيضاح

( وإذا ما أنزلت سورة ) أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككاً لهم : ( أيكم زادته هذه ) السورة ( إيماناً ) أى يقينا بحقيقة القرآن والإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى أيكم زادته تصديقاً جازماً مقترناً بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزل عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والتقرب من الله .

قال تعالى مجيباً عن هذا السؤال مبيناً حالهم وحال المؤمنين فقال :

( فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ) أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

( وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ) أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار

الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال :

( أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ؟ ) أى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التي تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر والفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه وخذلان أعدائه ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما في قلوبهم وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

( ثم لايتوبون ولاهم يذكرون ) أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولايتوبون من نفاقهم ولايتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان وانطفاء نور الفطرة ، والله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر القمّ طعم الماء من سقم  
وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة في المناققين وهم غائبون عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم - بين حالهم وهم في مجلسه صلى الله عليه وسلم حين نزولها واستماع تلاوته لها فقال :

( وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ) أى وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر وتعامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتحنى رموسهم ، وتشاوروا في الانسلاخ من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلًا بعضهم لبعض :

( هل يراكم من أحد ؟ ) أى هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو المؤمنون إذا قتم من المجلس .

( ثم انصرفوا ) أى ثم انصرفوا جميعا عن مجلس الوحي متسلاين لوأذا كراهة منهم لِمَاعِهِ وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلمة لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

( صرف الله قلوبهم ) أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق والاسترشاد بآيات كتابه إلى ما فى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته .  
وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هذا واحد فى كلامه تعالى .

( بأنهم قوم لا يفقهون ) أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل . لأنهم وطئوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ، أخير هو أم شر ؟ وأنى لمثل هؤلاء - وتلك حالهم - أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

### شرح المفردات

من أنفسكم : أى من جنسكم ، وعزيز : أى شاق ، والعنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد ، والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بوجوده والرافة : الشفقة ، والرحمة : الإحسان .

## المعنى الجملى

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها ، إلا على من خص بوجوده التوفيق والكرامة - ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف ، فيبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا والآخرة إليهم فهو كالطيب المشفق والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الخاذق ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضرر من التأديب يشق على النفس احتمالها كما قال :  
 فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم  
 قال أبى بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن ، لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة ، وعن ابن عباس : آخر آية نزلت (وَآتُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوما .

## الإيضاح

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ » .  
 ذلك أن منته على قومه أعظم ، وحقته بكتابه أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن المعجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فأمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن المعجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بهم القرآن وبيانه له صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والعمل وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .  
 وقد امتن الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال « وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ

وَيَقَوْمِكَ» أي وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به في العالم وَيُدُونَ لَكُمْ فِي بَطُونِ  
الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكا بر قومه أئفةً واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دينهم - إلى  
أن في اتباعه إقرارا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا  
على ثقة من فوزه ونيلتهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

(عزيز عليه ما غنتم) أي شديد عليه غنتكم ولقاؤكم المكروه لأنه منكم ، فليس  
من الهين عليه أن تكونوا في الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم  
فيها ، ولا أن تكونوا في الآخرة من أصحاب النار التي وقودها الناس والحجارة .  
(حريص عليكم) أي حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم كما قال الله تعالى  
« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(بالمؤمنين رهوف رحيم) أي هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل ما يدعوه  
إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق منها  
كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال في قوله ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم )  
إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريةا وربيعةا  
ويمانيها - يريد أن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب وبطونها .  
(فإن تولوا فقل حسبي الله) أي فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء  
بما جئتهم به ، فقل حسبي الله فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من  
عداوتهم وصددهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت .

(لا إله إلا هو) أي لا معبود سواه إلجا إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافي  
والمعين .  
(عليه توكلت) أي عليه وحده توكلت ، فلا أكمل أمرى فيما أعجز عنه  
إلى غيره .

(وهو رب العرش العظيم) العرش مركز تدير أمور الخلق كما قال تعالى «مُسْتَوًى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ» وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تديره ، وعظمة العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا يبنى أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله والمدير لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمه الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها - يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المکتوب فى الرفاع والأكتاف والعسب إلا عنده ، وقد كانتا محفوظتين معزوفتين للكثير كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ، فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمه بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم - إلى قوله وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبدا ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها .

وأمن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما فى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ بن حجر في شرح البخارى : إن زيدا لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدها مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، فهو صريح في أن البحث عن كتبها فقط اه .

لجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعهما في آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أبي بن كعب وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا ، فلما كُتِبَتَا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يرو أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .